.

القراءة الاستشراقية للحالة الفيزيائية للّرسول صلّى الله عليه وسلم أثناء تلقّيه وحي السّماء

The Physical Condition Of The Prophet (Peace And Blessings Of Allah Be Upon Him) When He Received The Revelation Of Heaven

حمليل سجية [1]

[1] جامعة الجزائر -1- كلية العلوم الإسلامية (الجزائر)،hamlilsadjia@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/05/23 تاريخ القبول:2020/03/29 تاريخ النشر: جوان 2020

الملخص

تناولت في هذا البحث قراءات الفكر الاستشراقي للحالة الفيزيائية للّرسول صلّى الله عليه وسلّم والأعراض التي تنتابه أثناء رؤيته للملك جبريل عليه السّلام ونزول الوحي عليه. ولأهمية هذا الموضوع، درسته من خلال هذه المباحث الثلاثة، حيث تطرقت في المبحث الأول إلى القراءة السلبية لأحاديث النبي صلّى الله عليه وسلّم المتعلقة بكيفية نزول وحي السماء المبنية على المنهج الافتراضي الذي يفتقر إلى السند العلمي والموضوعي، والذي يحاول من خلاله إلصاق تهمة داء الصرع بشخص النبي الكريم، وعملت على الرد بأدلة علمية وطبية لتفنيد هذه الشبهة. إضافة إلى مسألة خطيرة تتمثل في تفسير هذا الفكر فترة فتور الوحي وانقطاعه بمحاولة رسول الإسلام الانتحار والتردي من شواهق الجبال، بردود علمية في المبحث الثاني. ولقد نظر الفكر الاستشراقي إلى نبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم على أنّها مجردة من الصوت الإلهي، فناقشت ما ذهب إليه من أنّ له قواسم مشتركة مع الكهانة، علماً أنّه لم يثبت أنّ أي كاهن ادّعى لنفسه النبوة، كما بيّنت ذلك في المبحث الثالث. هذا ونصلّي ونسلّم على النبي الأمي عليه أفضل الصلاة وأزكى التّسليم.

الكلمات المفتاحية: قراءة استشراقية، حالة، رسول الله صلى الله عليه وسلم، تلقي، وحي السماء

Résumé

In this research I discussed the readings of the orientalist thought of the physical state of the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) and his symptoms during his vision of King Jibril (as) and the revelation. Because of the importance of this subject, I studied it

المؤلف المرسل: حمليل سجية ، الإيميل المهني: hamlilsadjia@gmail.com

through these three detectives, and in the first topic I touched upon the negative reading of the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) concerning the way in which the sky is based on the virtual curriculum, which lacks scientific and objective authority, and through which it tries to glue a charge Epileptic disease in the person of the Prophet, and worked to reply scientific and medical evidence to refute this suspicion. In addition to the serious question of explaining this thought is the period of the loss of revelation and its interruption by the attempt of the prophet of Islam suicide and degradation of the mountains, with scientific replies in the second. The orientalist thought of the prophecy of Muhammad (peace and blessings of Allaah be upon him) was seen as devoid of divine voice, and she discussed what he had in common with his fortune, knowing that it had not been established that any priest claimed for himself the prophecy, as I indicated in the third. We pray and acknowledge the Prophet, the best prayer and the most delicious delivery.

Key words: an orientalist reading, a case, the messenger of allaah (peace and blessings of allaah be upon him), received, and the revelation of heaven.

المقدّمة

تعرّض الإسلام ورسوله الكريم محمد صلّى الله عليه وسلّم منذ زمن طويل لهجوم عنيف من قبل خصومه وأعدائه. و لقد كان أعداء الّدين عبر العصور ينفثون سمومهم وافتراءاتهم ضدّ رسالته، حيثُ اتُّهم نبي الإسلام بالسّحر والشّعر والجنون والكهانة، ومرض الصرع. وتوالت هذه الافتراءات إلى يومنا هذا، بأساليب متنوعة، منها وسائل الإعلام الحديثة في تشويه حقيقة نبوته و محاولة تجريدها من الصوت الإلهي، مع محاولة التّشكيك في الّدين والرّسالة الخاتمة، والطعن فيها، دون استصحاب الأدلّة العلمّية الصحيحة ، أو الحجج والبراهين المعقولة.

أهمية الموضوع

يُعدُّ موضوع الوحي المنزّل على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وسّنته المطهرة من المواضيع التي أثار الفكر الاستشراقي بسببها الكثير من الشُّبهات والافتراءات، ومحاولاته اليائسة والمكشوفة لكل ذي عقل وبصيرة للتشّكيك في النبوة الخاتمة.

أسباب اختيار الموضوع

1- عرض شبهات علماء ومفكري الغرب ومحاولة الّرد عليها بطريقة علمّية وموضوعية.

2- الّنظرة الاستشراقية اتجاه الّنبي محمد صلى لله عليه وسلّم، وإصدار الأحكام التعسُّفية كوصفه بالكذّاب، أو الدجّال، والقول ببشرّيةالقُرآن الكريم، والعمل على التّأكيد عليها للوصول بها إلى مرتبة الحقائق الثابتة.

3- الإشارة إلى حقيقة مهمة، وهي أنّ أوّل خطوات ومراحل مقاومة أيّ فكر ضال، هي الدّراسة الدّقيقة لأدق حيثّياته، وجمع المعلومات الشّاملة عنه، ومعرفة المنطلقات، والخلفّية التي انطلق منها، والأهداف التي يسعى إليها.

الدّراسات السابقة:

1-رضا محمد الدقيقي، تاريخ القُرآن للمستشرق الألماني تيودور نولدكه، ترجمة وقراءة، رضا محمد الدّقيقي، رسالة دكتوراه. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1432هـ-2011م.

جاء فيه رفض نولدكه وصف رسول الله صلى الله عليه وسلّم بمرض الصرع الحقيقي، واختياره بدلاً من ذلك أنّه كان مُصاباً بحالات تهييج نفسي.

2-لخضر شايب، نبوة محمد صلّى الله عليه وسلم في الفكر الاستشراقي المعاصر، بين فيه الباحث التوجّه الاستشراقي المعاصر، ودراساتهم العديدة للنبوة، في مختلف جوانب حياة خاتم الأنبياء محمد صلّى الله عليه وسلّم.

3- نذير حمدان، الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في كتابات المستشرقين، تناول المؤلف من خلاله الرّؤية الاستشراقية الإيجابّية والسلبّية، وموقفها من نبي الإسلام صلّى الله عليه وسلّم.

الإشكالية:

حقيقة أنّ الوحي ظاهرة لم يعرف العلم تفسيرها حتى الآن، ولكن لا عيب على العلم في هذا. إلاّ أنّ هذه الإشكالّية تطرح لدينا عدّة تساؤلات: هل مّن المستشرقون بين الوحي والصّرع؟ ولماذا نبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم وحده من بين سائر الأنبياء؟ وهل يمكن علمياً ومنطقّياً تشخيص حالة مرض الصرع لأي مريض كان، عن بعد، ناهيك عن شخص الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الّذي رحل بجسده عن العالم من قرون ؟ هل يستقيم ذلك؟ ألم يكن العرب يعرفون مرض الصّرع؟ ألم يروا بعض الحالات المرضّية أمامهم؟ ولماذا أسرعت السّيدة خديجة رضي اللّه تعالى عنها إلى ابن عّمها ورقة ابن نوفل لتسأله عن الحالة الّتي انتابت محّمد صلّى اللّه عليه وسلّم عندما ركض إليها يطلب التزّمل والتدثّر لو تأكدت وأيقنت أنّها مجّرد نوبة من نوبات الصّرع الّتي تنتاب أيّ إنسان ذكراً كان أم أُنثى، صغيراً أم كبيراً ؟

وهل كان سيغيب عن متّهمي الــرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم تشخيص حالة الصّرع هذه لو أُصيب بها الّنبّي حقيقة، وهل يٌعقل أن يغفل أهل الفراسة وعمق الفكر ودقّة الّنظر من الصّحابة الكرام رضي اللّه عنهم، لو رأوا على الّنبي صلّى اللّه عليه وسلّم الأعراض نفسها الّتي يتعّرض لها أيّ إنسان مريض بداء الصّرع؟ وهل يوجد صرع يسمعه الجالسون من حوله؟ وكان الوحي يأتي بصوت كصلصلة الجـ رس أو دويّ الّنحل.

وعليه، يتلّخص الموضوع ضمن خطة اشتملت على مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة تضّمنت نتائج وتوصيات هذا البحث.

خطة البحث: لقد تّم تقسيم هذا البحث إلى مقدمة و ثلاثة مباحث.

المبحث الأوّل: القراءة الاستشراقّية في حديث نزول الوحي على النّبي صلّى الله عليه وسلّم.

المبحث الثاني: الاستشراق و فكرة الانتحار.

المبحث الثالث: محمّد صلّى الله عليه وسلم والكهانة.

وأنهيتُ البحث بتقديم خاتمة عامة قّمت فيها حوصلة لأهم نتائج الّدراسة وتوصياتها، كما تّم تقديم قائمة شاملة بالمصادر والمراجع. كما انتهجت في تقديم كل المصادر والمراجع ذكر اسم المؤلف والمؤلَف، دار الّنشر، والبلد، وذكر الطبعة والصفحة معتمدة هذه المنهجّية طيلة البحث.

منهج البحث:

عملت على ذكر الشُّبهة، أو المفهوم الخطأ، ثم قمت بتحليله و بتصويب الخطأ والّرد عليها بالأدلّة العلمّية والبراهين المنطقية، والوقوف على المفاهيم الصحيحة، لبيان الصواب من الخطأ.

المبحث الأول: القراءة الاستشراقّية في حديث نزول الوحي على النّبي صلّى الله عليه وسلّم :

أوّلاً : وحي أم نوبة صرع:

لقد تساءل بعض المستشرقين حديثاً عن عدم إخبار القرآن الكريم باعتباره وحي السّماء المباشر من خلال آياته عن وصف الحالة أو ردود الأفعال الفيزيائّية الّتي تنتاب الّرسول صلّى اللّه عليه وسلّم أثناء نزول الوحي عليه، واكتفت الأحاديث النبوّية الشّريفة بتفصيل ذلك وتبيانه.

ولقد حاول جل المستشرقينالطّعن في ذاته صلّى اللّه عليه وسلّم من خلال تفسير" الأعراض الطبيعّية الّتي كانت تنتابه حين يُوحى إليه بالصّوع، وهو علّة معروفة. قال الرئيس: تمنع الأعضاء الّنفيسة من أفعالها منعاً غير تام، وسببه شُدّة تعرض في بعض بطون الّدماغ، وفي مجاري الأعصاب المحرّكة للأعضاء من خلط غليظ، أو لزج كثير، فتمتنع الّروح عن السُّلوك فيها سُلوكاً طبيعّياً فتتشّنج الأعضاء. والصّويع المجنون، قال ابن القطاع: صُوع الإنسان صرعاً: جُنّ.

والصرع هو اختلال عصبي داخلي ينتج عن اضطراب الإشارات الكهربائية في خلايا المخ. والخلل الـ قائم في العملية الكهربائية الدماغية ينشأ عن تشكل ما يُعرف بالبؤرة الصّوعّية والتي تكون مصابة، ومنها تنطلق إشارة البدء وتتعمم على كامل النشاط الكهربائي في الّدماغ، والعرض الأساسي الجامع لكل أشكال الصرع هو فقدان الوعي وما قد يرافقه من تشنجات مختلفة وفقاً للحالة، وأشهر أنواعه هو الصرع الكبير حيث تحدث تقلّصات تتبعها رجفان شامل لكل عضلات الجسم. وفي الّدرجة الثّانية يكون الصرع الصغير عند الأطفال عادة بحيث يفقد المصاب وعيه لفترة قصيرة ويستردها[1] ووصف هذه العلّة أيضاً المفكر محمد خير الّدرع بأّنها تمنع القوى الّنفسّية عن القيام بوظائفها على الوجه الطّبيعي إذ يسيل لعاب المصاب بها من جّراء اصطكاك أسنانه ويسقط على الأرض بعد أن يفقد وعيه،فيُشجُّ رأسه أو يجرح وجهه حتّى إذا أفاق ظهر عليه الإعياء والذّهول وآثار المرض. وليس كذلك الأعراض الّتي كانت تبدو

على محمّد حين تلقّيه الوحي، فيجهد – وهو الأمّي- لاستيعاب كلامه الرّفيع الموصوف بالثّقل في قوله تعالى: {إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً} [2] حتّى إذا انتهت شدّته انصرفت عنه تلك الأعراض، وظهرت على وجهه أمارات البهجة والإشراق." [3]

و من هذه النّصوص الاستشراقية التي تؤكّد هذا الزّعم:

« La tradition (hadith) n'a pas manqué de décrire les réactions physiques du prophète : Comportement d'une personne qui répond à une action extérieure. Réaction de peur , de colère, réflexe. [4]

Il frissonnait et tremblait, se faisant généralement couvrir d'un voile ou d'un manteau, sous lequel on l'entendait souffler, gémir, pousser des cris rauques. Il en sortait en sueur avec une lourdeur de tête qu'il soignait par des cataplasmes. Une tension musculaire intense est aussi signalée » [5]

ومن اللاّئق في هذا السياق، أن نورد هذا التّحليل الذي ساقه أحد الأطباء الغرب حول من سبق سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم من الأنبياء عليهم السّلام، والذي نقرأه من خلال هذه القراءة التّشخيصيّة للحالة الفيزيائية والنّفسية لبعض الأنبياء، كالنّبي إبراهيم، وموسى وعيسى عليهم السّلام، إذ يتساءل قائلاً :

« Jésus, Abraham et Moise étaient-ils pas psychotiques ?

Psychose : Maladie mentale ignorée du patient et qui provoque des troubles de la personnalité. Psychotique : personne atteinte d'une psychose. Psychomatique : qui concerne les maladies physiques liées à des causes psychiques. [6]

Abraham, le premier cas de psychose : s'il reste bloqué au moment de frapper son fils, c'est peut-etre qu'il s'y associe une épilépsie partièlle avec une pute de contact. Moise est d'abord un enfant abondonné, ce qui laisse des traumatismes psycho-infantiles importante. Jésus semble présenter une note dépréssive ; il explique la nécéssité de sa mort, et se met en danger de façon délibérée. Un quasi suicide qui semble compatible avec un trouble de l'humeur selon les auteurs. » [7]

لا يوجد في النّص القرآني أنّ إبراهيم عليه السّلام ضرب ابنه إسماعيل، وإنّما أُمر بذبحه، و مع ذ لك، لم يعرف عليه السّلام هذه الحالة رغم أنّه أُلقي به في النّار، ولم يتعرّض لحالة عصبّية أيضاً أثناء تلقّيه أمر السماء بذبح الذي وهبه الله إيّاه على كبر وعلى ضعف الشّيخوخة المعروف. كما أنّ المراد من أمر الله هذا لنبّيه إبراهيم عليه السّلام، ليس الذّبح حقيقة، لأنّ القصة من سياقها وأحداثها كما يقول الباحث مصطفى محمود أثناء حوار له مع صديقه الملحد الذي سأله عن غرابة تصديق هذه القصة: " إنّ مراد الله من إبراهيم لم يكن ذبح ابنه، بدليل أنّ الذّبح لم يحدث، وإنّما كان المراد أن يذبح إبراهيم شغفه الزّائد بابنه، ومحبّته الزّائدة لابنه، إذ لا يجوز أن يكون في قلب النّبي تعلّق بغير الله، لا دنيا ولا ولد ولا جاه ولا سلطان" [8] . كما أنّ موسى عليه السّلام لم يعرف التشرّد في طفولته، ولم يحفظه الله فحسب، و إنّما جعله من أولي العزم من الرُّسُل ، وقصته في القرآن معروفة، فلقد احتضنته امرأة فرعون احتضاناً يشبه احتضان السّيدة حليمة لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم في صباه. و لقد عاش نبّي الإسلام يتيماً عليه

الصلاة والسّلام، فهل نستطيع القول عنه أنّه كان مشرّداً. أمّا عن حالة عيسى عليه السّلام، فالقرآن الكريم نفى نفياً تاماً قصة قتله وصلبه، ولم ترد فكرة التّضحية بنفسه لدرجة الوقوع في حالة مرضية هستيرية كما يعتقده الفكر المخالف للفكر الإسلامي إلاّ من خلال عقائد الكتاب المقدس عنده .

وما سقت هذا النّص إلاّ للتّأكيد على سلامة كل الأنبياء عليهم السّلام وخاتمهم محمد صلّى الله عليه وسلّم من مثل هذه الحالات المرضيّة، خصوصاً في مجال الدّعوة إلى دين الحق سبحانه وتعالى.

كما تساءل المستشرق الفرنسي ألبر كازيمرسكي Kasimerski Albert كغيره من المستشرقين بشكل دقيق، وبحذر شديد عن حقيقة الظروف، التي جعلت محمدا صلى الله عليه وسلم يصدّق أنّه قد أوحي إليه، وهذا نص قوله:

« Là encore soyons prudents :chez beaucoup d'inspirés, et chez bien des gens du commun, il n'y a pas une notion claire de la différence qui existe entre l'objectivement vrai et le subjectivement nécessaire, il est difficile d'appliquer toujours à cette obscurité, le nom d'hypocrie. Ce n'est pas non plus faire avancer beaucoup la question que d'affirmer qu'il était épileptique, (Relatif à l'épilepsie. Convulsions épiléptiques. Atteint d'épilépsie . une épiléptique) ou en proie à quelque état de folie religieuse. Le fait d'une psychologie anormale n'a même pas besoin d'être discuté.

Seulement, ce qui est intéressant, ce n'est pas ce par quoi il aurait pu ressembler à un épileptique, ou à un fou ordinaire, mais précisément ce par quoi il en a différé ;il y a eu qu'un fondateur de la religion musulmane. » [9]

لقد كان كازيمرسكي شديد الحذر إزاء هذه المسألة، لانعدام الرّؤية الواضحة، والفكرة الصائبة، على حد قوله: لنكن حذرين، فعند كثير من الموحى إليهم، وكذلك عند كثير من النّاس لا توجد فكرة واضحة للاختلاف الموجود بين الموضوعيّة الصحيحة والذّاتية الضرورية، إنّه من العسير أن نستعمل دائماً في ظل هذا الغموض اسم مكر أو خبث، ولن يفيد أيضاً أن نزعم أنّه كان مصاباً بالصرع، أو فريسة لحالة جنون ديني. إنّ الحالة النّفسية غير الطبيعية لم تكن لتُناقش، إنّ ما يهم، ليس أن يشبه المصروع أو المجنون، ولكن بالتّحديد ما هو وجه الاختلاف بينه وبين هؤلاء المجانين والمصروعين، فهناك مجانين كثر، ومصروعون كُثُر لكن لم يكن أحد منهم مؤسساً لديانة الإسلام.

أما قراءة ديورانت المنصفة لهذه الشُّبهة، تُطمئن كازيمرسكي ومن سار على منهجه من أخذ الحذر في هذه المسألة، ويقول: " كثيراً ما كان يحدثُ أثناء هذه الرّؤى أن يسقط على الأرض ويرتجف أو يغشى عليه، ويتصبّبُ العرق من جبينه...وقد يكون ارتجافه ناشئاً عن نوبات صرع... ولكّنا لا نسمع بأنّه عضّ في خلالها لسانه أو حدث ارتخاء في عضلاته كما يحدثُ عادة في نوبات الصرع. وليس في تاريخ محمد ما يدل على انحطاط قوّة العقل التي يؤدي إليها الصرع عادة، بل نراه على العكس يزداد ذهنه

صفاء، ويزداد قُدرة على التّفكير وثقة بالنّفس وقّوة في الجسم والرّوح والزّعامة كلّما تقدّمت به السن. وقُصارى القول أّنا لا نجد دليلاً قاطعاً على أنّ ما كان يحدثُ للّنبي كان من قبيل الصّرع." [10]

والحقيقة، ما تساءل المستشرقون عن ردّة فعل محمّد بن عبد اللّه أثناء نزول الوحي، إلاّ للتّركيز عن طبيعة الوحي نفسها في الإسلام الّتي تختلف عنها في الرّسالات السّماوية السّابقة. ويمكننا أن نستشفّ من خلال ما ذكرناه ، أّنه لا أحد من المستشرقين المعاصرين كان يؤمن حقيقة بمرض النّبي محمد صلّى الله عليه وسلّم، إلاّ أنّ ما نقلوه في كتاباتهم يُشير إلى محاولة التأكيد على صحة هذه القضيّة. ومع ذلك يمكننا أن نستثني من جملة أصحاب هذا الفكر، المستشرق مونتغمري وات الذي خالف ونفى وبشكل صريح مرض الصرع عن النّبي محمد صلّى الله عليه وسلّم، وعمل على الفصل بين مرضه في حالة ثُبوته وبين حقيقة الوحي في حدّ ذاته، إذ يقول: " إنّ محمّداً قد ميّز بين ما يُوحى إليه وبين أفكاره الخاصة. ولقد أكد أعداء الإسلام غالباً أنّ محمداً كان مُصاباً بالصّرع، وأنّ تجاربه الدّينيّة لهذا لا قيمة لها، ولكن الأعراض الموصوفة لا تُشبه أعراض الصرع، لأنّ هذا النّقص يؤدي إلى تخاذُل جسدي وعقلي، بينما ظلّ محمد حتى آخر حياته مالكاً لقواه العقلّية. وحتى لو أمكن ادّعاء ذلك فإنّ الحُجّة تظلّ مناقضة لكل رأي سليم، إذ لم تقُم إلاّ على الجهل والوهم؛ لأنّ المظاهر الجسدّية الملازمة لا تثبت ولا تنفي قط بنفسها التّجربة الدّينية ".[11]وجميل ما ركز عليه المفكر الجزائري مالك بن نبي في ضوء دقّة المعاني التي يمكن استخلاصها من قراءته للموضوع، وردّه على هذه الاتّهامات التي تخلو من تحكيم العقل بالمنطق والعلم، قوله: " لقد ظلّ محمد صلّى الله عليه وسلّم يتمتّع بحالة عادية، وبحرّية عقلّية ملحوظة من الوجهة النّفسّية، بحيثُ يستخدم ذاكرته استخداماً كاملاً خلال الأزمة نفسها " [12] وهذا ما يؤكد لناوعي النّبي صلّى الله عليه وسلّم بهذه الظاهرة، وعياً دقيقاً ننفي به وجوباً والزاماً ما نقله ديورانت، رغم إنصافه للحق، وصفه للأعراض الجسدية التي تعتري نبّي الإسلام محمد صلّى الله عليه وسلّم أثناء تلقّيه وحي السماء.

والتساؤل الذي قد يتبادر إلى الذّهن، هل يستطيع المصروع بعد إفاقته من غيبوبته أن يعرف أو يتذكر ما حدث له، وهو في حالة من الضّعف تكسبه شفقة النّاس عليه ؟ وكيف استطاع النّبي صلّى الله عليه وسلّم بعد كل هذه الأعراض المرضية حسب زعمهم أن يأتي للّناس بكل هذه الآيات البّينات لكلام الحق سبحانه وتعالى ؟

ثانياً: التّفسير العلمي والطّبي لداء الصرع:

ذكر أحد الباحثين تفسير أطّباء الأعصاب لنوبات الصرع بقوله:

ذهب الباحث مصطفى السّعدني في بيان علاقة صرع الفص الصّدغي بالنّبي محمد صلّى الله عليه وسلّم بقوله:" هو اضطراب مزمن في الجهاز العصبي، قد يعاني بسببه المصاب بحالة تشبه الحلم

وتغييرات في الوعي أو الأحاسيس الغريبة أو الهلوسة ورؤية أو سماع أو شعور أو شم أو تذّوق أشياء ليست حقيقّية." [13]

ولقد بّين أحد الباحثين الجانب العلمي لهذه المسألة، موضّحاً أنّ "الثّابت علمّياً والمعروف " لدى الأطّباء المختصّين بالأمراض العصبّية أنّ النّوبات الصّرعية ليست نوبات نفسّية، بل هي ناتجة عن تغّيرات فسيولوجّية عضوّية في الّدماغ، ولذلك كانت الأحلام الّتي تمرُّ بذهن المصاب بها- كما أثبتت الاختبارات الطّبّية- شيئاً من التّنبيه لذكريات قديمة مّرت به أو فكّر فيها ثّم حفظت في ذاكرته. ولا يمكن للمصروع أن يؤلّف في إّبانها أّي شيء، فكيف بالقوانين التّشريعّية والآداب والحكم و العبر وغيرها من بدائع القرّآن الّذي عجز جهابذة الفكر وأرباب البيان في القديم والحديث عن أن يقلّدوه في شيء منها؟" [14]

والتّساؤل المطروح هو: هل تطرأُ أوصاف نزول الوحي على محّمد صلّى اللّه عليه وسلّم على من سبقه من الأنبياء والمرسلين؟ وهل تطرأُ هذه الأعراض الجسدّية على الأنبياء والمرسلين الّذين سبقوا محمدا صلّى الله عليه وسلّم ؟

ولقد أكد الباحث نفسه على أّنها الأعراض عينها الّتي كانت تصيب سائر المرسلين حين تلقّيهم وحي ربّهم. " فإبراهيم -وفق رواية التّوراة-لما أُوحي إليه بشأن معاناة نسله وغربتهم وقع عليه عند مغيب الشّمس سُبات و رعبة مظلمة. و يعقوب لما رأى في الُحلم السلّم والملائكة وخاطبه الّرب استيقظ خائفاً وقال: ما أرهب هذا المكان ! وموسى يصف حالته حينما ُنودي بإرساله فيقول (لقد شعرت بأّن قلبي انكسر بين أضلعي وارتعشت منّي العظام، فصرت كالّشوان لما قام بي من الشّعور عند سماع صوت اللّه وأقواله المقّدسة). فكيف يؤمنون –مع هذا- بوحي هؤلاء ويكفرون بوحي محّمد وهو يرجع معهم إلى ناموس واحد على حدّ قول ورقة بن نوفل؟." [15]

وهذا نص ساطع، يؤكد بوضوح تجاهل الفكر الاستشراقي كل الحالات الّتي انتابت الأنبياء عليهم السّلام، وهم يتلقّون الوحي، وركزوا على حالة خاتم الأنبياء محمد صلّى الله عليه وسلّم فقط، بالّنقد السلبي المليء بالافتراضات الضّلّالة والتصّورات غير الصحيحة، وهو الذي يشكّل صورة نمطية سلبية عن الإسلام تؤّيه في عقل الآخر ووجدانه، ويُسهم في تمرير التّشويه لهذه الشخصية العظيمة.

وما تساءل المستشرقون عن ردّة فعل محّمد بن عبد اللّه أثناء نزول الوحي، إلاّ للتّركيز عن طبيعة الوحي نفسها في الإسلام الّتي تختلف عنها في الّرسالات السّماوية السّابقة.

وما نقله السّيوطي في الإتقان، أّن في تنزيل القرّآن طريقان:

{ أحدهما أّن الّنبّي صلّى اللّه عليه وسلّم انخلع من صورة البشرّية إلى صورة الملكّية وأخذه من جبريل. والثّاني: أّن الملك انخلع إلى البشرّية حتّى يأخذه الّرسول منه، والأّول أصعب الحالين. و المراد بإنزال الكتب على الرُّسل: أن يتلّقها الملك من اللّه تلقّفاً روحانّياً، أو يحفظها من اللّوح المحفوظ، وينزل بها فيلقيها عليهم } [16]

ويقول الإمام السُّيوطي:أنّ جبريل عليه السّلام تلقّفه أي القُرآن سماعاً من اللّه تعالى:

ما أخرجه الطّبرانّي من حديث النّواس بن سمعان مرفوعاً : {إذا تكلّم اللّه بالوحي أخذت السّماء رجفة شديدة من خوف اللّه، فإذا سمع بذلك أهل السّماء صعقوا وخرّوا سجّداً، فيكون أوّلهم يرفع رأسه جبريل، فيكلّمه اللّه من وحيه بما أراد، فينتهي به على الملائكة، فكلّما مرّ بسماء سأله أهلها: ماذا قال ربّنا ؟ قال: الحقّ. فينتهي به حيث أمر.} [17]

و لقد بيّن الباحث محمّد سعيد رمضان البوطي المنهج الّذي سلكه في فهم حقيقة الوحي؛ إذ يقول: " إنّنا نجد أنفسنا أوّلاً أمام خبر يقيني وصل إلينا بالتّواتر طبق شروطه المعروفة، ألا وهو خبر أنّ النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم قد أُوحي إليه. و بذلك اجتزنا نصف المسافة إلى دراسة هذا الأمر، ولما أردنا أن نحلّل هذه الظّاهرة الّتي تأكدنا من تلبّس النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم بها، وجدنا هذا الخبر نفسه يضعنا أمام وقائع وأحداث معيّنة. فكان لابدّ من التّصديق بذلك بعد أن صدّقناه في إثبات أصل الوحي.

ولما فرضنا (مع تصديق هذه الوقائع واعتمادها) أن يكون الوحي شيئاً ممّا يقوله الجاحدون بنبوّته عليه الصّلاة والسّلام، وجدنا هذه الفرضيّة تستلزم لزوماً بيّناً نتائج باطلة لا يقبلها عقل أيّ مفكر. وثبت ما دلّت عليه وقائع النّصوص من أنّ الوحي لم يكن إلاّ تلقّياً منه عليه الصّلاة والسّلام لحقيقة خارجة عن كيانه بعيدة عن إرادته، لم يكن مستشرفاً لها ولا متوقّعاً شيئاً منها." [18]

ولقد بيّن أحد الباحثين الجانب العلمي لهذه المسألة، موضّحاً أنّ " الثّابت علميّاً أنّ المصروع أثناء الصّرع يتعطّل تفكيره وإدراكه تعطلاً تاماً. فلا يدري المريض في نوبته شيئاً عمّا يدور حوله، ولا ما يجيش في نفسه، كما أنّه يغيب عن صوابه. والنّبي صلّى الله عليه وسلّم بخلاف هذا كله كان يتلو على النّاس، بعد انتهاء لحظات نزول الوحي، آيات بيّنات وعظات بليغات، وتشريعاً محكماً، وأخلاقاً عالية، وكلاماً بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة، فهل يُعقل أن يأتي المصروع بشيء من هذا، اللّهم إن هذا لا يجوز إلاّ في حكم من لا يميز بين الأبيض والأسود، والليل والنّهار." [19]

لو كان الصرع أو الجُنون اختلال في العقل، يُعيقُ صاحبه عن القدرة عن القيام بالتصرّفات السّديدة والموفقة، لما فكر قوم محمد صلّى الله عليه وسلّم في زمانه من تحكيمه في حلّ أصعب المشكلات الاجتماعية التي كاد المهتمون بها أن يتقاتلوا بسببها، لو لا تدخّله صلّى الله عليه وسلّم بحكمة بالغة سجّلها له التاريخ، وشهد له برجاحة العقل الأعداء قبل الأحباب، ألا وهي مسألة وضع الحجر الأسود في مكانه عند بناء بيت الله الحرام، وهم على علم أنّ المجنون، أو من به داء الصّرع لا يكون قدوة ولا أُسوة لأي سوي يحترم عقله.

ولقد ساق لنا الباحث شوقي أبو خليل قصة كيف فك الرسول صلّى الله عليه وسلّم النزّاع بين المتخاصمين في وضع الحجر الأسود، إذ يقول:

"فلما أعادت قُريش بناء الكعبة اختلفت بطونها من يُعيد الحجر إلى مكانه، وأقبل محمد الأمين قبل البعثة بخمس سنوات، فدعوه لرجاحة عقله وحّيهم له، (فهو الأمين) ليفصل في الأمر، فبسط رداءه ووضع فيه الحجر، وجاء من كل بطن رجل، حمل من طرف الرداء حتى أوصله عليه الصلاة والسّلام إلى موضعه، فوضعه بيده الشّريفة، وأنهى مشكلة حرجة." [20]

وفي هذا بيّن الباحث أحمد شوقي إبراهيم بدقة التناقُض الموجود في فكر هؤلاء المدّعين، بقوله:

" وهذا تناقض أثبتوه بقولهم إنّه مجنون، وإما أنّ المقصود به أن يستعين بالجن في أمره، ولعل هذا الأقرب؛ لأنّهم لم يكونوا من السفاهة بحيث يقعون في أن يقولوا إنّه مختل عقلّياً، وقد شهد له الجميع برجاحة العقل و الرّأي." [21] وهناك في القُرآن ما يؤيّد ذلك الرّأي، وهو قوله تعالى:

{ فذكر فما أنت بنعمت ربّك بكاهن ولا مجنون } [22].

إنّ المساس بنبّوة محمد صلّى الله عليه وسلّم مساس بكل النبوات، ذلك لأنّ القُرآن الكريم لا يفّرقُ بين أحد من رسله. لذلك فلا يخفى أنّ "المتشبثين بفرية الصرع هذه لا ينالون من نبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم وحده، وإنّما ينالون من جميع أنبياء الله ورسله الذين كانت لهم كتب أو صحف أوحى بها من عند الله. فهل يقولون عن نبي الله موسى وعيسى ما يقولون في خاتم الأنبياء، إنّ هذا الادعاء لا ينطق به إلاّ أحد رجلين: رجل مادي حبس نفسه بين أسوار العالم المادي المحسوس، أو رجل مخرب يريد هدم الأديان كلها." [23]

ولقد رفض المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون " تفسير وحي الله إلى النّبي بكونه صرعاً أو هلوسة أو انفصاماً في شخصيته." [24]

وختاماً لهذا المبحث، أُنّبه المستشرقين أن لا يغفلوا أنّ مرض الصرع كان معروفاً عند العرب، وما كان على هؤلاء المستشرقين أن يغفلوا رواية أُم زفر الشّهيرة في الصّحيحين، حول معرفة هذا المرض في أوساط العرب، الأمر الذي يجعل أذكى الأذكياء منهم يميّز بين هذا الدّاء الذي يُضعفُ صاحبه، وبين الوحي الذي ازداد به النّبي صلّى الله عليه وسلّم قّوة على قوة، وامتدت دعوته في مشارق الأرض ومغاربها، لتُثبت عالمّية هذه الرسالة الخالدة.

ولم يجد المستشرق لامارتين Lamartine أيّ وصف يصف به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم غير أن يعترف بعظمته على جميع الأصعدة. حيث يقول:

« A toutes les échelles ou l'on mesure la grandeur humaine, quel homme fut plus grand ? ».[25]

المبحث الثّاني: الاستشراق وفكرة الانتحار

أوّلاً :فتور الوحي ومحاولة انتحاره صلّى الله عليه وسلّم:

إنّ أخلاقّية محمّد صلّى الله عليه وسلّم قد تعّرضت لكثير من الافتراءات، وإلصاق الشبهات بدينه، إلاّ أنّ الشّبهة الدّقيقة والرّئيسة هي تلك التي تمس جوهر عقيدته ورسالته، على أساس أنّ القُرآن الكريم

الذي يخاطب به النّاس هو كلام الله، في حين هو ليس كذلك من منظور الفكر الاستشراقي. وعليه، فمن بينالشّبهات والاتّهامات الّتي اتُّهم بها الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم، إثارة مسألة من أخطر المسائل التي تخدش وسلّم في حقيقة وحي السماء المنزّل على روحه صلّى الله عليه وسلّم ، والقول بمحاولة انتحاره مراراً في حديث بدء الوحي، بعد رؤيته لجبريل عليه السّلام لأوّل مرّة وانبهاره ممّا رأى، ثّم فتر الوحي، وانقطع عنه بعد ذلك، فحزن صلّى اللّه عليه وسلّم شوقاً لما رآه. ومن بين المستشرقين الّذين يؤكّدون هذه القصّة المزعومة، وسندهم في ذلك ورود هذه الحادثة في تفسير الطّبري، باعتباره من أهم المصادر الإسلامية المعتمدة.

لقد مرّ نبي الإسلام في بداية الوحي بفترة قاسية جدّاً أثرت كثيراً على نفسيته لعمق الأحزان التي كابدها بسبب توقف نزول وحي السماء عليه، بانقطاع رؤيته للملك جبريل عليه السلام في غار حراء. ولقد ترتّب عن هذا الفتور قراءات سلبية من طرف المعارضين لدعوته، وتواترت هذه التفاسير السلبية عبر العصور إلى عصرنا الحاضر، بتغير المناهج و أساليب المعارضة عبر الأزمنة. ولقد ركز المستشرقون على دراسة هذه الفترة، ومن هؤلاء المفكرين الذين درسوا هذه الجزئية من سيرته صلّى الله عليه وسلّم، المستشرق Roger Caratini حيث يقول:

« Après ces premières visions, il se produit un (trou), une discontinuité,(en arabe : fatra) dans la Révélation . C'est une période de crise pour Mahomet qui , nous rapporte al - Tabari, partait souvent sur la montagne afin **de se précipiter du haut des rochers** ;mais, à chaque fois, Gabrièl apparaissait et lui disait :Tu es le messager de Dieu.et son inquiétude cessait .Il est possible que cette fatra ait duré trois ans ;la tradition place à cette époque la sourate (al-duha, soit L'Eclat du jour) qui est un réconfort pour le Prophète. »[26]

وفي هذا النّص تأكيد على إثبات عزم وإصرار النّبي صلّى الله عليه وسلّم على تنفيذ عملية الانتحار هذه من شواهق الجبال، بحيث تكّرر الإقدام منه وليس مجرد فكرة عابرة خالطت فكره، ممّا يفيد تأكيد الشُّبهة في حدّ ذاتها.

إضافة إلى هذا النّص أيضاً الذي يستشهد صاحبه من خلاله بمحاولة تصوير حالة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يقدم على عملية الانتحار، إذ كاد يتردّى من فوق سطح الجبل، إلاّ أنّ جبريل أخذه بين جناحيه، بشكل جعله لا يستطيع لا التقدم ولا التأخّر، وقال له: لا تخف شيئاً لأّك أنت رسول الله، وأنا الملك جبريل.

«….Mohammed se dirigea vers le sommet pour se tuer en se précipitant du haut de la montagne. Gabrièl le prit entre ses deux ailes, de façon qu'il ne put ni avancer ni reculer. Ensuite il lui dit :O Mohammed, ne crains rien, car tu es le prophète de Dieu, et moi je suis Gabriel, l'ange de Dieu. » [27]

ثانياً: موقف علماء الإسلام من مسألة الانتحار:

المعروف عن الإمام الطّبري أّنه اعتمد على الجمع لا على التّمحيص للمروّيات الّتي يسوقها في

تفسيره،حيث كثر ما يُعرف بالإسرائيلّيات في كتابه ا لمعتمد كمرجعّية لدى هؤلاء.

لكن التّساؤل الذي يمكن طرحه في هذا الإطار: هل يُلزم أصحاب هذا الفكر بقراءة كتب المتقّمين، قراءة نقدّية مصطبغة بعقيدة المسلم، فيعمل على تصفية وتمحيص هذه المروّيات، والوقوف على صحيحها فقط؟ كيف يمكن إقناع الفكر الاستشراقي، أنّ ما يجده في بعض هذه المصادر من مروّيات والّتي لا تقنع الباحث المسلم نفسه، أنّها مجّرد إسرائيلّيات؟ أليس من المنطق والواجب أن يُلزم المسلم نفسه بضرورة تمحيص وتنقية بعض هذه الكتب من الأخطاء الموجودة فيها لتكون مرجعّية دقيقة للمسلم ولغيره؟ وكيف يمكن الّدفاع عن الّنبّي صلّى اللّه عليه وسلّم برفع هذه الشّبهة عنه، إذا علمنا أنّ من الباحثين المسلمين أنفسهم يُقّرون بصحّة هذه الّرواية المزعومة؟

وعليه، يقول محّمد سعيد رمضان البوطي في هذا الصّدد:

"لقد شاء اللّه عزّوجل أن يحتجب عنه الملك الّذي رآه لأّول مّرة في غار حرا ء مّدة طويلة،وأن يستبّد به القلق من أجل ذلك، ثّم يتحّول القلق لديه إلى خوف في نفسه من أن يكون اللّه عزّ وجل قد قلاه بعد أن أراد تشريفه بالوحي والّرسالة، لسوء قد صدر منه، حتّى لقد ضاقت الّدنيا عليه وراحت تحّدثه نفسه كلّما وصل إلى ذروة جبل، أن يلقي بنفسه منها.إلى أن رأى مّرة أخرى الملك الّذي رآه في حراء، وقد ملأ شكله مابين الّسماء والأرض يقول: يا محّمد إّنك رسول اللّه إلى الّناس.فعاد مّرة أخرى وقد استبّد به الخوف والّرعب إلى البيت"[28]. ونزل عليه قوله تعالى:{يا أّيها المّدثّر قم فأنذر..} [29]

والتّساؤل المطروح: لماذا لم يتم محّمد صلّى اللّه عليه وسلّم محاولة الانتحار هذه؟ ومع تعدُّد محاولاته للانتحار وظهور جبريل عليه الّسلام لتهدئته، أليس من العقل والمنطق أّنه لو صّح ذلك لكان المفترض أنّ مّرة واحدة كافية لتثّبته وتصّرفه عّما ينوي عمله؟ أليس من حقّ الّرسول صلّى اللّه عليه وسلّم بحكم بشرّيته الإحساس ببعض الحزن، أو الإحباط أو الضّيق؟ وما هو دور الإمام الّزهري؟

وردت قصّة محاولة انتحار الّنبي صلّى اللّه عليه وسلّم في آخر متن الحديث مقّمة بعبارة:

{فعن عائشة رضي اللّه عنها أّنها قالت:أّول ما بُدئ به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من الوحي الّرؤيا الصّادقة في الّنوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصُّبح، فكان يأتي حراء فيتحّنث فيه... وفتر الوحي فترة حتّى حزن الّنبي صلّى اللّه عليه وسلّم، فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً كي يتردّى من رءوس شواهق الجبال، فكلّما أو فى بذروة جبل لكي يُلقي منه نفسه تبّدى له جبريل، فقال: يا محّمد، إّنك رسول اللّه حقّاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقرُّ نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبّدى له جبريل فقال له مثل ذلك.}

يقول أحمد شوقي إبراهيم عبارة (فيما بلغنا)لا يقولها غالباً إلاّ رجل من التّابعين أو من جاء بعدهم، ولا يقولها الصّحابة رضي اللّه عنهم غالباً؛ لأّنها تدلُّ على عدم رؤية أو عدم سماع؛ ولذلك فقد ذهب

بعض أهل العلم إلى أنّ هذا الكلام من كلام الزّهري، يرويه مرسلاً " [30]. وهذا هو الّذي رجّحه الحافظ ابن حجر في كتابه حيث قال:

" ثّم إنّ القائل (فيما بلغنا) هو الزّهري، ومعنى الكلام أنّه في جملة ما وصل إلينا من خبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في هذه القصّة، وهو من بلاغات الزّهري وليس موصولاً). وعليه فهذا الخبر مرسل، والمرسل من أقسام، وخاصّة مرسل الزّهري؛ كونه من صغار التّابعين، ولغير ذلك.

فهذه الرّواية ليست صحيحة رغم ورودها في صحيح البخاري، لأنّه أوردها تحت عنوان (البلاغات) ، ومعروف أنّ البلاغات في مصطلح علماء الحديث إنّما هي مجرّد أخبار، وليست أحاديث صحيحة السّند أو المتن." [31]

" كما أنّ إخراج البخاري لهذه اللّفظة لا يلزم منه أنّه يحكم بصحّتها؛ كما أنّ أبرز ما يدلُّ على عدم صحّته، وبذلك يزول الإشكال بأنّ القصّة لا تصح أصلاً، ويؤكّد ذلك أنّ الحديث ورد في صحيح البخاري في أكثر من موضع ولم ترد فيه هذه الزّيادة، وذلك يؤكّد أنّها ليست من الحديث، وأنّ محاولة الانتحار المزعومة تلك ليست حقيقيّة، وحاشا أن يقدم رسول اللّه وهو إمام المؤمنين على الانتحار، أو حتّى على مجرّد التّفكير فيه." [32]

إنّ اللّه تعالى صرف عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم وعصمه من فكرة الانتحار هذه الّتي ذُكرت في الرّواية أنّها تكرّرت مرّات عديدة، وكان جبريل يظهر ويقول له: (يا محمّد إنّك رسول اللّه حقّاً فيسكن لذلك جأشه، وتقرُّ نفسه).

"إنّ التّعليل الصّحيح لكثرة غشيانه صلّى اللّه عليه وسلّم رءوس الجبال وشواهقها أنّ الإنسان إذا حدث له خير أو نعمة في مكان، فإنّه يحبُّ هذا المكان ويتلّمس فيه ما افتقده، فلمّا انقطع الوحي صار الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم يُكثر من ارتياد قمم الجبال - ولاسّيما غار حراء رجاء أن يجد جبريل عليه السّلام في حراء أو في مكان غيره، فرآه راوي هذه الزّيادة، وهو يرتاد الجبال فظنّ أنّه يريد هذا، وقد أخطأ هذا الرّاوي المجهول في ظّنه قطعاً ." [33]

وأرجّح قراءة هذا الباحث لهذا الحديث، تحديداً بلاغات الزّهري، لأنّه لا يُعقل أن يجزم أحد بصحّة مشهد وقع في غار حراء وهو المكان البعيد الّذي لا يصله كائن من كان، وتخّيم على المتردّد عليه الخلوة الشّديدة، تدخله في عالم لا يعلم كنهه إلاّ اللّه، لما يتمُّ من اتّصال بين عالم الشّهادة وعالم الغيب، وتعامل والتصاق الملك بالبشر في مشهد رهيب بالّنسبة للموحى له نفسه صلّى اللّه عليه وسلّم. وفي هذا السّياق يطرح البوطي تساؤلاً وجيهاً ثّم يجيب عنه، إذ يقول:

"لماذا كان ينزل الوحي عليه صلّى اللّه عليه وسلّم، وهو بين الكثير من أصحابه فلا يرى الملك أحد منهم سواه؟ و الجواب أنّه ليس من شرط وجود الموجودات أن ترى بالأبصار، إذ إنّ وسيلة الإبصار

فينا محدّدة بحدّ معّين، وإلاّ لاقتضى ذلك أن يصبح الشّيء معدوماً إذا ابتعد عن البصر بعداً يمنع من رؤيته.على أنّ من اليسير على اللّه جلّ جلاله، وهو الخالق لهذه العيون المبصرة أن يزيد في قّوة ما شاء منها فيرى مالا تراه العيون الأخرى." [34]

وللإمام الشعراوي رأي جميل في هذا الصدد، يحلل من ورائه موقف خصوم النّبي صلّى الله من حيرته أثاء انقطاع الوحي عنه، إذ يقول: " فلما فتر الوحي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شمت به الأعداء، وقالوا: إنّ ربّ محمد قد قلاه. سبحان الله، أفي الجفوة تذكرون أنّ لمحمد ربا ؟ ألستم القائلين له: كذاب وساحر ؟ والآن أصبح له رب لأنّه قلاه ؟ وما فهم الكفار أنّ فتر الوحي لحكمة عالية أرادها ربّ محمد هي أن يرتاح نفسيا من مشقة هذه التغيّرات الكيماويّة في تكوينه، وأن تتجدّد طاقته، ويزداد شوقه للقاء جبريل عليه السّلام من جديد، والشّوق إلى الشّيء يهّون الصعاب في سبيله، كما يسير المحب إلى حبيبه، لا تمنعه مشاق الطريق." [35]

إنّ قضيّة الأهداف المبتغاة من وراء دراسة الوحي من قبل الفكر الغربي، لا تنفصل عن الأهداف المتوخّاة من خلال البحث الاستشراقي والخلفّية السببية لأعمال المستشرقين؛ فلا يمكن التّساؤل عن تلك الأهداف بمعزل عن النّظر في البنية المذهبية والتّركيبة النّفسية والحقبة التّاريخيّة التي نسجت خيوط فلسفة هذه الأهداف ورسمت معالمها لدى الفكر الاستشراقي الذي لا يزال مهتّماً بهذا النوع من الدّراسات الاستشراقّية حول محمد صلى الله عليه وسلّم وعن القُرآن الكريم.

المبحث الثّالث: محمد صلّى الله عليه وسلم والكهانة

أوّلاً : شبهة خاطئة تصف النّبي صلّى الله عليه وسلّم بالكهانة

من الشّبهات التي حاول بعض المستشرقين إثباتها، القول أنّ لمحّمد صلّى اللّه عليه وسلّم قواسم مشتركة كثيرة مع الكهنة، بشهادة معاصريه، ربّما لاشتراكه معهم في نفس البنية الجسدّية والنّفسّية.لقد كان مثلهم معّرضاً للنّوبات العصبّية، وكان مؤّهلاً للّرؤية والسّماع والإحساس بأشياء يمكن الوصول إليها دون غيره من النّاس الآخرين.

« Mohammad avait beaucoup de traits communs avec les kahin, ses contemporains ne devaient pas manquer de le souligner. Sans doute sa constitution physiologique et psychologique était du même type que la leur.

Comme eux il était sujet à des crises nerveuses, il était apte à voir, à écouter, à ressentir des choses inaccessibles aux sens des autres êtres humains. »[36]

وقد بنى مكسيم رودنسون رأيه هذا واستخلص نتائجه على مجّرد ظن دون يقين ويشهد لنا تعبيره (Peut-être) وغيلب الموضوعّية واعتماد الظّن أثناء التّحليل أو التّفسير لهذا النّوع من المسائل التي لا تّثمر نتائج علمّية صحيحة.

كما اعتمد على فرضيّة التّحليل النّفسي وليس لها ما يدعّمها من أدلّة وشواهد، ويُرجعها إلى عدم الرّضى والاقتناع العميق كسبب ونتيجة لطبعه ومعاناته نحو الأربعين أدّى إلى تقوية مؤهّلاته الّتي دفعته إلى التّفكير بعمق لانفراده بشخصيّة أغنى وأقوى من شخصيّة الكهنة العاديّة.

« Peut-être que son insatisfaction profonde, à la fois cause et conséquence du tempérament qui était le sien vers la quarantaine, contribuait à renforcer ses prédispositions.

Mais comme il était doué d'une personnalité singulièrement plus riche et plus puissante que celle des kahin ordinaires, cette insatisfaction le poussait aussi à réfléchir. »[37]

وممّا سبق، يتبيّن لنا أنّ هناك تناقض في الفكر الاستشراقي مع نفسه أحياناً، إذ مع اعترافه بقوّة وتميّز شخصيّة النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم وبأنّه موهوب بخصائص لا تُوجد عند الكاهن العادي، إلاّ أنّه يُريد أن ينسب الوحي لمحمّد نفسه وليس لمن أنزل عليه الوحي؟

والتّساؤل المطروح: ما الّذي يدعو الكهن أن يُنكر كونه كاهناً؟!وهل يُحتمل أن يكون محمّداً كاهناً لأنّه أخبر ببعض الغيب؟ و ما سمعنا كاهناً وضع كتاباً -لا قبله ولا بعده- فضلاً عن أن يضع القرآن الكريم.

ثانياً: تفنيد هذه الشُّبهة

لو كان الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم ساحراً كما يعتقد رودنسون، لسحر قومه، وخدّر عقولهم، وأضعف أنفسهم واستولى على خيالهم، موظّفاً كل الحيل السّحريّة الّتي يستخدمها السّحرة خداعاً ليؤمنوا به. لماذا يتحمّل مجاهدة هؤلاء لسنوات طويلة ويقاوم مواقف جدُّ صعبة وشديدة جعلت منكري نبوّته يعذّبون أتباعه ويخرجونهم من ديارهم وتضيع أموالهم، ويُقتل أولادهم وأحبابهم أمام أعينهم، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة، حيث وُجد فيها النّجاشي، الرّجل الّذي لا يُظلم عنده أحد.ووصل الأذى إلى درجة التّفكير والتّخطيط لقتله هو نفسه، وخرج صلّى اللّه عليه وسلّم من مكّة الّتي أحبّها بشدّة مهاجراً وهؤلاء الأتباع جميعاً من الصّحابة وغيرهم إلى المدينة المنوّرة تعلوهم مشاعر الأسى والحزن على ما حلّ بهم، والأحداث التّاريخيّة لسيرته صلّى اللّه عليه وسلّم كثيرة لا يمكن سردها كلّها. إنّ الكهانة لم تكن عيباً عند العرب، وهذا الاتّهام تمّ توجيهه لكلّ الأنبياء من قبل كما يقول القرآن وكأنّهم يتوارثونه أو تأمرهم به أحلامهم، فهو على ما يبدو حيلة عقليّة يلجأ إليها المكذّب:

{كذلك ما أتى الّذين من قبلهم من رسول إلاّ قالوا ساحر أو مجنون، أتواصوا به بل هم قوم طاغون}[38]

ولقد ذكر الباحث يوسف القرضاوي اتفاق علماء الإسلام على " مطاردة الكهانة والعرافة والتنجيم وكل فنون السحر والشّعوذة والتّدجيل على عباد الله، واعتبار ذلك ممّا يضاد الإيمان بالله تعالى، ويعارض الإسلام الذي يحترم سنن الله في خلقه، ونظام الأسباب والمسببات، ويقدر العقل العلمي القائم على

المشاهدة والتجربة في الحسيات والماديات، وعلى البرهان في العقليّات، وعلى التوثيق في النّقليّات ." [39]
وكما قال تعالى: { نبئوني بعلم إن كنتم صادقين}

ونستخلص من هذه النّظرة طابع الإخلاص المطلق الّذي اتّصف به الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم، والّذي كان يوحي بالثّقة الكاملة لكلّ من عرفه سواء من أصدقائه أومن أعدائه.
ولم يستطع أشد أعدائه إنكار حقيقته الأخلاقية صلّى الله عليه وسلّم، وشهد له بالحق والإنصاف.

إذ " تُعتبر شهادة أبي سفيان في هذه النّقطة وثيقة تـــاريخيّة ثمينة في مظهرها العربي والرّوماني على السّواء... وإن كانت مجهولة تماماً في الكتب الأُوروبّية. وإنهـــا في صورة حوار قام فيه (أبو سفيان) بالرد على أسئلة محبوكة وجههـــا إليه الإمبراطـــور (هرقل) وكان أبو سفيان في ذلك الوقت، من أشدّ أعداء محمّد ضـــراوة وحنقـــاً. [40]

وعليه، ففي الوحي شيء يجب أن يُعلم علماً يقيناً، هو أن ظاهرة الوحي تتمثّل في شيء وفي حقيقة خارجة عن إرادة النّبي لا يملك جلبها ولا ردّها، لو أنّه يملك جلبها لاختلط الشّيء، لو أنّه يملك ردّها لاختلط الأمر، حقيقة الوحي مستقل تمام الاستقلال عن كيان النّبي، لا يملك جلبها متى شاء، ولا ردّها متى شاء. ليكون هذا الوحي واضحاً وضوح الشّمس أنّه ليس حلماً، وليس رؤية نفسيّة يملك استحضارها متى شاء، وردّها متى شاء، لا ، الوحي شيء خارج تماماً عن إرادة النّبي لا يملك جلبها ولا ردها.

والدّليل الثّابت الذي لا يمكن إنقاضه، تقدّم وسائل الطّب الحديث باستخدامه الأجهزة والكهرباء في الفحص الجّيد في العلاج، أنّ الحالات التي كانت تنتاب الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أثناء نزول وحي السماء عليه، ليست نوبات صرع كما يحلو للفكر الاستشراقي ترديده، محاولاً إثبات هذه المزاعم الباطلة.
لأنّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم بشهادة المستشرقين أنفسهم ، حيث كان من بين ما ذكروه من أوصافه، أنّه تمتّع ببنية جسدية قوية، ولا يُعقلُ أن يكون المصاب بداء الصرع بهذه القوة، وإنّما تُسيطر الآلام الحادة على جميع أعضاء جسده، يشتد إحساسه بها عندما يفيق من نوبته، لدرجة التفكير في الانتحار من شدّة الآلام وقسوتها. إلاّ أنّ محمد صلّى الله عليه وسلّم كان وضعه بخلاف ذلك ، حيث كان حزنه عميق جدّاً عند انقطاع الوحي وفتوره عنه، ومثال ذلك قصة الإفك، وما لاقاه من معاناة نفسية بسبب هذه الحادثة ما لا تحتمله الجبـــال. وكم كانت سعادته أعمق يوم عاد الوحي ينزل عليه مرة أُخرى ، ويتلقى من الملك جبـــ ريل عليه السّلام من جديد آيات ربّه، وكيف تتشوّق روحه إلى هذا العالم الخفي الغيبي ، عالم الملكوت، ويستحيل أن تكون هذه التجلّيـات الرّوحية من انشغـــالات مـريض بالصرع، أو فريسة لحالة جـنـــون ديني.
إنّ الجنون هي إحدى الصفات التي وصف بها المشركون من قريش النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وهذه الصّفة قديمة في ثوب جديد لتفسير ظاهرة الوحي، لذلك تساءل أحد الباحثين:

"لماذا يؤلف محمد صلّى الله عليه وسلّم القُرآن وينسبه إلى غيره؟ فالعظمة تكون أقوى وأوضح وأسمى فيما لو جاء بعمل يعجز عنه العالم كله، ولكان بهذا العمل فوق طاقة البشرّية فيُرفع إلى مرتبة أسمى من مرتبة البشر، فأي مصلحة أو غاية لمحمد صلّى الله عليه وسلّم في أن يؤلف القُرآن – وهو عمل جبار معجزويُنسبه إلى غيره ؟ "[41]

وأدقُّ جواب يمكن أن نجيب عليه، أنّ هذا أكبر دلالة على أنّ القرآن وحي من اللّه إلى نبّيه صلّى اللّه عليه وسلّم، لأنّ القُرآن تضمن أخبارا كثيرة حدثت في القُرون الماضية، كالحديث عن سد ذي القرنين، ومدينة إرم ذات العماد التي نّكرت في سورة الفجر، وغيرها من الأخبار التي لا تخطر على بال بشر ناهيك عن التّفكير في إنشائها آنذاك، وهذا ينسفُ القول ببشرية كتاب الله سبحانه وتعالى، و دليل ذلك خلو هذا الكتاب المقدس من ذكر قصّة حياته صلّى الله عليه وسلّم، أو نبذة عن حياته كما نجد في أيّ كتاب مؤلّفه بشر. ولا يمكن أن نساير المستشرقين في قراءاتهم وتحليلاتهم التي تجرد الوحي من الصوت الإلهي،والتشكيك في مصدرية القُرآن الكريم ونفيها، والتّشديد على بشرية محمد صلّى الله عليه وسلّم، بينما يؤمن الكثير من المستشرقين بالرّسالات السماوية السابقة، من يهودية و مسيحية، ومنهم من يتعصب لهاتين الديانتين.

لقد اقتصر إنكارهملنبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم دون غيره ممن سبقوه. وهذا يعكس تعصبهم الفكري والعرقي، البعيد عن الفكر الحضاري؛ لأنّ عقيدة النّبيّ الخاتم جاءت بمبدأ قوي، تقول من خلاله للعالم أجمع: (لا نفرق بين أحد من رسله).

الخاتمة:

تصحيحاً للصورة المسيئة لمقام النبّوة الشّريفة في الأدبّيات الاستشراقية، بعد الاطلاع على ما تحمله تلك الدّراسات من إنصاف أو تشويه لحقيقة هذه الشّخصية العظيمة، التي صلّى الله عليها وملائكته في الملأ الأعلى، تؤكد العقيدة الإسلامية الصحيحة أنّ ا لوحي ليس رؤية نفسّية كما يدّعي بعض المستشرقين، ولا على أنهّ ا شيء ألفه النّبي صلى الله عليه وسلم، أو أحد فروع عبقرّيته، وإنّما هو ظاهرة مستقلّة استقلالاً تاّماً وخارجة عن كيان النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم، ودليل ذلك أنّ هناك فرقاً كبيراً جدّاً بين أسلوب القرآن وأسلوب النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم في الحديث الشّريف. ولو كان نزول الوحي بيده صلّى اللّه عليه وسلّم، لما فتر عنه وتشّوق إليه وازداد احتراقه ، و كثُر تردده على غار حراء طمعاً في رؤية جبريل عليه السّلام مرّة أُخرى . ولو كان بيده أيضاً، لما تأخر عن مواجهة ما افتراه الأفاكون ضدّه بقذف زوجه البريئة السيدة عائشة رضي الله عنها التي رأت من المعاناة ما رأت بسبب هذا البهتان، ولم يجد عليه الصلاة والسلام ما يلملم به هذه الجراح والآلام ، إلاّ أن يصطبر على منيُشاقق دعوة الحق.

وهذا أكبر دلالة على أنّ القرآن وحي من اللّه إلى نبّيه صلّى اللّه عليه وسلّم، لأنّ القُرآن تضمن أخبارا كثيرة حدثت في القُرون الماضية، كالحديث عن سد ذي القرنين، ومدينة إرم ذات العماد التي ذّكرت في سورة الفجر، وغيرها من الأخبار التي لا تخطر على بال بشر ناهيك عن التّفكير في إنشائها آنذاك، وهذا ينسفُ القول ببشرية كتاب الله سبحانه وتعالى، و دليل ذلك خلو هذا الكتاب المقدس من ذكر قصّة حياته صلّى الله عليه وسلّم، أو نبذة عن حياته كما نجد في أيّ كتاب مؤلّفه بشر. ولا يمكن أن نساير المستشرقين في قراءاتهم وتحليلاتهم التي تجرد الوحي من الصوت الإلهي، والتشكيك في مصدرية القُرآن الكريم ونفيها، والتّشديد على بشرية محمد صلّى الله عليه وسلّم، بينما يؤمن الكثير من المستشرقين بالرسالات السماوية السّابقة، من يهودية ومسيحية، ومنهم من يتعصب لهاتين الديانتين. لقد اقتصر إنكارهم لنبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم دون غيره ممن سبقوه. وهذا يعكس تعصبهم الفكري والعرقي، البعيد عن الفكر الحضاري؛ لأنّ عقيدة النّبّي الخاتم جاءت بمبدأ قوي، تقول من خلاله للعالم أجمع: (لا نفرق بين أحد من رسله) [42].

بعد هذه السياحة الفكرية والعلمية، بين حيثيات هذا البحث، نخلص إلى النتائج والتوصيات الآتية:

نتائج البحث:

1- إنّ الدّراسات الاستشراقية حتى الموضوعية منها، لم تسلم من تعصب وهوى، والعمل على خدمة نزعات دينية واستعمارية.

2- المجنون لا يتبعه عاقل يحترم نفسه. وقوم محمد صلّى الله عليه وسلّم لم يكونوا من السفاهة بحيث يقعون في أن يقولوا إنّه مختل عقلّياً، وقد شهد له الجميع برجاحة العقل و الرّأي.

3- صفة الجنون قديمة في ثوب جديد، ردّدها المشركون المعاصرون لنزول الوحي القُرآني، وعليه، فلم يأت الفكر الاستشراقي بالجديد في هذه المسألة.

4- لا يُعقلُ عقلاً ولا علماً أن تُشخّص حالة أي إنسان مريض بداء الصّرع حقيقة عن بُعد، ولا حتى بالاتصال الهاتفي في وقتنا الحاضر، فكيف استطاع هؤلاء المدّعون تشخيص حالة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم نفسه، والاعتداء على جسده الشّريف بمحاولة تفسير بعض أعراض الوحي بالجنون، أو الصرع، أو الكهانة وغيرها من الاتهامات.

5-نظرة الاستشراق إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم، مجردة من الصّوت الإلهي. ومحاولة التشكيك في الّدين والأُلوهية والرّسالة.

6- لم يكن للرّسول صلّى الله عليه وسلّم أسرار خاصة؛ لأنّه مُشَرِعٌ للأمة، وكل أقواله وأفعاله مكشوفة أمام أمته، فما يمر إنسان بموقف إلاّ ويجد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قد سبقه إليه ومرّ به ليتعلّم من فعله صلّى الله عليه وسلّم.

7- انطلاق الفكر الاستشراقي من افتراضات وتحليلات وغايات، ومن أهداف مناوئة لعقيدة الإسلام، لتلون منهجه بصبغة التنقُض والغموض أحياناً.